بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حقٌّ عظيم وواجبٌ جسيم أعلى الله تبارك وتعالى في القرآن قدره، ورفع مكانته وشأنه، وقرنه سبحانه بحقه؛ إنه «حق الوالدين»؛ ويكفي برهانًا ودليلاً على عِظم هذا الحق وجسامة هذا المطلب أنَّ الله تبارك وتعالى قرنه بحقه في خمس آياتٍ من القرآن الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة:٨٣].وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[الأنعام:١٥١].وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء:٣٦].وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣]. وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾[لقمان].

وبمثل ما جاء به القرآن جاءت سنة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ ففي «الترمذي» من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «رِضَى الرَّبِّ فِي رِضَى الوَالِدِ، وَسَخَطُ الرَّبِّ فِي سَخَطِ الْوَالِدِ»(١). وجاء في «الصحيحين» عَدُّ برِّ الوالدين في أعظم القُرَب وجلائل الطاعات وكبير القُربات فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا» قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «بِرُّ الوَالِدَيْنِ» قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ»(٢).

وكما أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قرن في هذا الحديث برَّ الوالدين بالصلاة

(١) رواه الترمذي (١٨٢١) وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «السلسلة الصحيحة» (٥١٦)
(٢) رواه البخاري (٥٢٧) ومسلم (٨٥)

التي هي عماد الدين وأعظم أركانه بعد الشهادتين، فإنه قد صحَّ عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه قرن ضد بر الوالدين وهو العقوق بضد توحيد الله تبارك وتعالى وهو الإشراك به؛ ففي «الصحيحين» من حديث أبي بكرة أن النبي ﷺ قال: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟» ثَلَاثًا، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ -وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ- أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ»(٣) فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ.

وعندما أمر ربنا جل في علاه ببر الوالدين والإحسان إليهما أطلق الأمر وعمَّم ليتناول كل برٍّ وإحسان قوليٍّ أو فعلي، بل إن هذا الإطلاق يدل على أن للوالدين من البر أوفاه ومن الإحسان أعلاه، كيف لا !! ومقامهما مقامٌ عظيم وحقهما حقٌّ جسيم؛ ولهذا كان للوالدين من حُسْن الصحبة وطيب المعاملة وجمال الحديث ورعاية الحقوق ما ليس لغيرهما، بل إن لهما في ذلك الحق المقدَّم والنصيب الأوفى، ففي «الصحيحين»(٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَبُوكَ». فتأمل -رعاك الله - كيف جعل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ للوالدين الحقَّ الأعلى والنصيب الأوفى من حُسن المصاحبة وجميل المعاملة وطيب الحديث. ومن الناس من إذا لقي الأصحاب وجالس الزملاء والرفقاء تخيَّر لهم من الحديث أعذبه، ومن الخُلُق أطيبه، ومن الأدب أرفعه، وإذا التقى بوالديه أو بأحدهما لم يقدِّم لهما شيئًا من ذلك !! بل إنهما ربما عند بعض الناس في آخر القائمة وآخر المستحقين؛ وهذا من تمام اللؤم وسوء الطبع

(٣) رواه البخاري (٢٦٥٤) ومسلم (٨٧)
(٤) رواه البخاري (٥٦٢٦) ومسلم (٢٥٤٨)

وشناعة الفعال، وانتكاسٍ في أداء الحقوق والواجبات.

وإذا كان الله عزَّ وجل في كتابه العظيم أمر برعاية هذا الحق؛ أعني المصاحبة بالمعروف للوالدين حال كفرهما بالله ودعوتهما لابنهما إلى الإشراك بالله كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان:١٥]، أمَر بمصاحبتهما بالمعروف مع هذه الحال - حال الكفر بالله ودعوة الابن إلى الإشراك بالله- فكيف إذا كان الأبوان مؤمنَيْن صالحيْن عابديْن متقيين لله تبارك وتعالى !! لاشك أن المقام أرفع، والأمر أعظم، والواجب أكبر.

ومن يتأمل أحاديث رسول الله ﷺ وهي كثيرة في هذا الباب يدرك علوَّ شأن هذا الواجب ورفعة مقامه، جاء في «سنن أبي داود» أن رجلاً أتى مهاجراً إلى نبي الله صلوات الله وسلامه عليه وقال: «جِئْتُ أُبَايِعُكَ عَلَى الْهِجْرَةِ وَتَرَكْتُ أَبَوَيَّ يَبْكِيَانِ»، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «ارْجِعْ إِلَيْهِمَا فَأَضْحِكْهُمَا كَمَا أَبْكَيْتَهُمَا»(٥)؛ وتأمل هذا رجل جاء مهاجراً إلى النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهذه الهجرة تعني ملازمة سيد الخلق ومرافقة إمام الأولين والآخرين صلوات الله وسلامه عليه، فأمَره بالعَوْدِ إلى والديه وأن يضحكهما. وجاء آخر إلى النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ليجاهد في سبيل الله فقال له رسول الله ﷺ: «أَحَيٌّ وَالِدَاكَ؟» قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: «فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ»(٦)؛ فعدَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ برَّ الوالدين والإحسان إليهما ضرباً من ضروب الجهاد في سبيل الله.

ويتأكد هذا الحق العظيم والعناية العظمى بالوالدين حال كبرهما وضعف قواهما ووهاء أبدانهما وضعْف أبصارهما وقلة حيلتهما؛ فالمقام

(٥) رواه أبو داود (٢٥٢٨)، والنسائي (٤١٦٣) وصححه الألباني في «صحيح أبي داود»
(٦) رواه البخاري (٢٨٤٢) ومسلم (٢٥٤٩)

-مقام البر- في هذا الموضع أعظم وأكبر، وتأمل في ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء]، وجاء في «الصحيح»(٧) عن نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه قال: «رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ» قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا فَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ»، إنه حرمان ما أشنعه وخسران ما أفظعه؛ أن يدرك المرء والديه أحدهما أو كليهما على الكبر فلا يقوم لهما بحق ولا يرعى لهما واجبًا ويكون عياذاً بالله عاقًا لهما مسيئًا إليهما.

ومن أحسَنَ لوالديه رعايةً للحقوق وقيامًا بالواجبات أحسن الله إليه في دنياه وأخراه، قال الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن]، و«كَمَا تَدِينُ تُدَانُ». ومن كان عاقًّا لوالديه مسيئًا إليهما فإن عاقبته الخسران ومآله ونهايته إلى الحرمان، وإذا كان أبواك قد بلغا هذا العمر المديد فإنك إن فسَح الله في أجلك وأمدَّ في عمرك ستبلغ من العمر ما بلغه أبواك.

ويعين على البر أمران عظيمان ومقامان جسيمان إذا استحضرهما المرء كانا أكبر عونٍ له على بره بوالديه:

أما الأول: فهو أن يتذكر الجميل السابق والإحسان المتواصل من الوالدين ولاسيما الأم؛ ليتذكر الحمل ومعاناته والوضع وشدته والرضاع وأتعابه وليتذكر أحوال أمه معه، ليتذكر ذلك كله وقد قال الله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان:١٤].

(٧) رواه مسلم (٢٥٥١)

والأمر الثاني: أن يتذكر وقوفه بين يدي الله وأن الله تبارك وتعالى سائله عن هذا الحق العظيم والمطلب الجسيم.

وقد جُمع بين هذين الأمرين الذين هما أكبر عونٍ للمرء على البر بوالديه في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان].

إن برَّ الوالدين قربةٌ من أعظم القرب وطاعةٌ من عظيم الطاعات، وهو من كمال الإيمان وحسن الإسلام ومن أعظم الأمور المقربة إلى الملك العلَّام سبحانه، حتى إن عبد الله ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال في هذا المقام: «لا أعلم عملاً أقربُ إلى الله تبارك وتعالى من بر الوالدة»(٨)، والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جدا.

ولا ينتهي بر الوالدين بوفاتهما أو وفاة أحدهما؛ فإنَّ وفاة الوالد أو وفاة الوالدة لا تعني انتهاء البر وانقطاعه، بل لا يزال الباب مفتوحا والمجال مفسوحا للبر بالوالدين بعد الوفاة، لاسيما بالإكثار من الدعاء لهما، والاستغفار، والصدقة عنهما، والحج والاعتمار، وكذلكم صلة ودِّهما وأقاربهما ومن يحبُّون، وكذلك إنفاذ وصيتهما، وأداء دَيْنِهما، ورعاية ما تبقى من حقوقهما؛ فكل ذلكم من مجالات البر المتاحة والمهيأة للبر بالوالدين بعد الوفاة. وفي الحديث يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»(٩).

أسأل الله جل في علاه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وبأنه الله لا إله إلا هو أن يشرح صدورنا أجمعين لبر الوالدين، اللَّهُمَّ اجعلنا بارِّين بوالدينا، اللَّهُمَّ وفِّقنا للإحسان إليهما، اللَّهُمَّ وأعذنا من العقوق والقطيعة يا ذا الجلال والإكرام، وأصلح لنا شأننا كله ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

(٨) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١٥) وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الأدب المفرد»
(٩) رواه مسلم (١٦٣١).

إعداد
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

دار المحجة
شارك في الدعوة إلى الله بنشر هذه المطوية لتكون لك حسنة جارية